عوامل نشأة التفكير العقلي عند المسلمين

أولا: العوامل الداخلية:

إنّ تفحص واقع العرب قبل مجيء الإسلام، وطريقة عيشهم وأسلوب تفكيرهم ، ومميزات القيّم عندهم ومناحي اعتقادهم ... ثمّ فهم التغيّر الذي حصل فيهم ... يدل ذلك حقيقة على أنّ هناك عوامل أساسية قلبت أحوالهم ، و موازين حكمهم ، وتصوراتهم ، وغيّرت المجتمع العربي القبلي إلى أمة لها وجود فعلي، وحضارة ، ودين وفلسفة ، فما هي هذه العوامل؟

1- العقلية الإسلامية: التي أسسها وبناها الدين الإسلامي، كروح جديدة تؤسس لتصور مختلف للحياة، والإنسان، والإيمان، والله، والغاية من الوجود، ... وغيرها من القضايا الميتافيزيقية والواقعية... التي تهدف إلى تشكيل كيان الفرد المسلم بكل أبعاده: الفكرية والسلوكية والاعتقادية .

وهذا من خلال الأصول التي قام عليها الدين الإسلامي المتمثلة في القرآن الكريم وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

فهل في القرآن ما يدعو إلى التفلسف؟

أ/ القرآن الكريم: الذي يعتبر كتاب الله المحفوظ، والمعبر عن الديانة الخاتمة التي أرسل بها محمد صلى الله عليه وسلم، حيث كان نزول القرآن الكريم أعظم حدث تاريخي وحضاري في ذلك الزمان ، لأنه ولّد نقطة تحوّل في الفكر العربي ، وفي تاريخ الحضارة الشرقية والعالمية... لما عبّر عنه من قضايا، ودعا إليه من مبادئ قلبت مفاهيم العرب السياسية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، والعقائدية ، والفكرية ... "لأنّ القرآن الكريم ليس مجرّد مواعظ أخلاقية ، أو تاريخا للعبرة عن قرون ماضية، بل هو أكثر من هذا ، هو كتاب ميتافيزيقي ، وإنساني ، وأخلاقي، وعامي.. وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه"

ومن هذا المنظور نجد أنّ القرآن الكريم حتى وإن لم يحمل فكرا علميا ملخصا ، وفلسفة منظمة ، فإنه عبّر عن كثير من القضايا العلمية والمواضيع الفلسفية واهتماماتها. فقد أعلن عن وحدانية الله وفاعليته، وفكرة الخلق ومصدرها، وأنكر قدم المادة ، وأعلن أنها محدثة... وأكد كرامة الإنسان وقوة عقله، واعتبره مسئولاً عن أفعاله.

وأنكر القرآن الكريم فكرة التثليث، وصلب المسيح، والتشبيه...وأعلن أنّ الله متصف بصفات الكمال. سميع ، عليم، بصير، مطلق، قادر كل القدرة... ليس كمثله شيء .

وعبر عن طبيعة الروح والإيمان بالقضاء والقدر والخير والاختيار في افعال العباد ... وغيرها من القضايا التي أشار إليها القرآن الكريم، من هذه الآيات قوله تعالى: **(ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه)**الأنعام، الآية 102.

وقوله تعالى: **(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها، ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)**(ق، الآية 6، 8.).

وقوله تعالى: **(قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد)** (الإخلاص).

وقوله تعالى: **(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)** (الشورى، الآية 11).

فكل هذه القضايا التي عبر عنها القرآن الكريم وغيرها أصبحت فيما بعد كلها موضوعا وحقلا خصبا لتفكير المسلمين وفلاسفتهم، وظهور فرقهم، مما يؤكد أنّ القرآن الكريم قد وضع الحجر الأساس للتفكير الفلسفي في الإسلام، وحثّ على النظر العقلي وجعله لزاما على القادرين ، بل واشترط سلامة العقل لسلامة الدين، وسوى بين الشهادة والعلم، وجعل النشاط العقلي والعلمي أرقى مراتب العبادة.

ب ــ السنة النبوية: وهي الأصل والمصدر الثاني في الإسلام بعد القرآن الكريم ، والسنة هي كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، وهي تعتبر شارحة للقرآن الكريم والترجمان السلوكي له، والعامل الأساس في تكوين العقلية الإسلامية، وصفاتها المعبرّة عن الهوية المتميزة.

لذلك نجد أنّ السنة النبوية، قد تضمنت ما لا يحصى من الأفكار والمبادئ التي عبرت عن كثير من البذور لقضايا التفكير الفلسفي، في إطار توضيح المبادئ والأفكار التي جاء بها القرآن الكريم، ومن هذه الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيّا، وقوله في الحديث الطويل الذي يرويه عمر ابن الخطاب: (الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه، وورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، قال صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال فاخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وقوله ﷺ: "إنّ الله لما خلق القلم قال له أكتب، قال رب وماذا أكتب؟ قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة".

وقوله ﷺ أيضا: " لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه علم فقد جهل"

وقوله ﷺ:"الحكمة ضالة المؤمن أنّ وجدها فهو أحق بها".

كل هذه الأحاديث تعبر عن أبعاد فلسفية، وجذور للتأمل العقلي، التي أصبحت فيما بعد موضوعات ومسائل للتفكير الفلسفي، خاصة بعد أن انتشر الإسلام وتوسعت الفتوحات ، وتعددت مشكلات المجتمع، وبدأت تظهر أفكار جديدة لم يعرفها المسلمون من قبل، مما اقتضى التعامل معها والاجتهاد في فهمها والرّد عليها مما يتناسب مع طبيعة الدين الصحيح(كقضية أدعياء النبوة... ووضع الأحاديث الكاذبة وقضية خلق القرآن...).

2/ **العقلية العربية ولغتها**: فالعرب قبل الإسلام، برغم انتشار الشرك بالله، والجاهلية في الحكم ، والعصبية في التصور ، وشيوع الرذيلة، واستعباد الانسان ... فهذا كله لا يعني أنهم قوم لا يفهمون، ولا يعملون العقل ولا يتدبرون.. فهذا حكم فيه كثير من الخطأ .. نعم نحن لا نجد لهم نظاما فكريا متكاملا، لكن ما بلغنا عنهم أنهم قوم يتميّزون بالفطرة والسليقة والصفاء الذهني والاهتمام ببعض مسائل الدين والأخلاق والأنساب وتدبير المصير، وشؤون السياسة، وبعض معطيات العلوم كالطب والفلك والحساب والفراسة والحرف والزراعة..وانتشار الخطابة والأمثال، والحكم الشعرية وغيرها.

فكل هذه المناحي العقلية لا تدل على عقلية عربية قاصرة ولا منغلقة، بل تدل على عقلية مرنة ومستوعبة لواقعها وبيئتها، ودليلنا على هذا أنّه لا يعقل أن ينزل القرآن الكريم بلغة قمّة في الدقة والبلاغة

والإعجاز وموجه إلى العرب ومخاطباً لهم وهم لا يفهمون كلامه، ولا يدركون معانيه. فهذا تناقض لأنّ رقي التعبير دلالة على رقي التفكير.

ثانياً: العوامل الخارجية: (أثر الثقافات الأجنبية)

إن حركية الإسلام كرسالة عالمية، بعقيدتها ومبادئها وأفكارها، لم تنغلق على نفسها في شبه الجزيرة العربية، بل انطلق أهلها يدعون إلى هذه الرسالة ويبلغونها إلى غيرهم من الأمم تحت شعار الآية الكريمة (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل: الآية 125).

فانفتح أهل الإسلام على أمم وحضارات لها ثقافتها ومذاهبها وأفكارها واعتقاداتها.. كل ذلك كان له انعكاسات على الكثير من التطورات الفكرية والسياسية، مهدت لظهور الروح الفلسفي، وازدهار التفكير العقلي.

ومن أهم الثقافات التي تأثر بها المسلمون وكانوا أكثر ولعاً بها الثقافة اليونانية وأفكارها، لما تميزت به من دقة، وشمولية، وارتقائها إلى مستوى التعبير عن نسق فكري متكامل.

وقد برز هذا التأثر مع حركة الترجمة، التي بدأت في العهد الأموي في نطق محدود، ثم اشتدت في العهد العباسي، حيث زادت فرص التفاعل مع الثقافة اليونانية، واتساع مجال الترجمة في عهد هارون الرشيد، والمأمون من خلال دار الحكمة كمنارة للترجمة والمطالعة والجدل.

لقد عكف المسلمون على ترجمة أمهات الكتب، ومن أهمها: كتب الحكيمين "أفلاطون" و "أرسطو" غير أن اطلاع المسلمين على فلسفة اليونان لم يكن مباشراً، وإنما كان من خلال شروحات وآراء فلاسفة الإسكندرية(العصر الهيليني) في القرن الرابع بعد الميلاد ومن أشهر فلاسفة العصر "أفلاوطين" و"فرفوريوس".

ويظهر بوضوح تعلق فلاسفة الإسلام بفلسفة اليونان من خلال أعمال: "الكندي"الفارابي" "ابن سينا"، و "ابن رشد" وغيرهم... لما اتسمت به تلك الفلسفة اليونانية من تناول للقضايا الإلهية والإنسانية والطبيعية، وكذا الفضول العلمي والدافع الحضاري لدى المسلمين في الاطلاع على ثقافات غيرهم، والاستفادة منها.

وهذا ما أدى إلى تفاعل حضاري وتلاقح فكري بين العقلية اليونانية وما أنتجته، وبين الفكر الإسلامي كرؤية حضارية جديدة.

ومن ناحية أخرى نشير أيضا أن تأثر المسلمين لم يقتصر على فلسفة اليونان وحدها، بل تواصل مع ثقافات أخرى: كاللاهوت اليهودي ، والمسيحي كديانتين سماويتين، وما عبرتا عنه من عقائد ، وكذلك أفكار الثقافة الفارسية، والهندية، والبوذية.. وغيرها.

وكل ذلك يعبر عن الوسط الثقافي العالمي الذي تعايشت معه الأفكار الإسلامي، وتفاعلت معه تأثيرا وتأثراً، أنتج كثيراً من القضايا والموضوعات، والمظاهر الفلسفية التي عبرت عنها، وناقشتها الفلسفة الإسلامية.